

مقاربة أولية لمعضلة زارح الكوشي

سفير السودان بفرنسا - وزارة الخارجية السودانية

د. خالد محمد فرح

مستخلص:

يسعى هذا المقال إلى اجتراف مقاربة اولية لشخصية سودانية قديمة (كوشية) غامضة جدا، هي شخصية ” زارح الكوشي ”، الذي ورد ذكره في سفر أخبار الأيام الثاني في العهد القديم من الكتاب المقدس. يحاول الباحث من خلال هذا المقال، التعرف على هوية زارح الكوشي، كما يحاول مناقشة تاريخية وجوده، عبر جملة من المعطيات والقرائن المتاحة، فضلاً عن محاولة وضعه في السياق التاريخي المناسب، من خلال الاحداث التي يسردها ذلك السفر المعني من الكتاب المقدس مرتبطة بهذه الشخصية بالتحديد، بالإضافة إلى بعض البيانات الظرفية التي توفرها سجلات التاريخ الوضعي العام، المتعلق ببلاد كوش، او مصر، او مملكة العبرانيين بارض كنعان، في حوالي القرن التاسع قبل الميلاد.ينطلق المقال من فرضية او قناعة لدى الباحث مفادها هو أن أسفار الكتاب المقدس، ينبغي ان تعتمد بجدية كاحد مصادر تاريخ السودان القديم، ذلك بانها قد اشتملت بالفعل على بعض المعلومات التاريخية النادرة ذات الصلة ببلاد. ” كوش ”، مثل اشارة سفر اخبار الملوك الثاني على سبيل المثال إلى ” ترهاقا ملك كوش ” الذي قاد جيشا حارب به الآشوريين دفاعا عن العبرانيين منذ ان كان اميرا في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد، واستمر نشاطه العسكري هناك بعد ان صار ملكا على وادي النيل كله، إلى ان تم دحر قواته بواسطة الآشوريين وانسحابه من مصر نفسها، مما اضطره إلى الانسحاب ،فقفل عائداً إلى عاصمته نبتة بشمال السودان، وهي المعلومة التي عضدتها مصادر التاريخ الوضعي في آشور ومصر الفرعونية، في عهد الاسرة الخامسة والعشرين التي تعرف باسم الاسرة الكوشية. وتأسيسا على ذلك، يحتاج المقال في ذات السياق، ان ” زارح الكوشي ”، ربما كان اميرا او ملكاً كوشياً سابقاً في الظهور والحكم والنشاط العسكري في بلاد الشام، من قبل الملك تهارقا بنحو قرنين من الزمان. يتبع المقال المنهج التاريخي الاستقرائي والاستنباطي والتحليلي للمعلومات والإشارات المتوفرة حول زارح الكوشي وزمانه، كما يعتمد على قرائن الاحوال والحس السليم والبيانات الظرفية.

الكلمات مفتاحية: زارح الكوشي، العهد القديم، سفر اخبار الأيام الثاني، الفرعون اوسركون، الاسر الليبية الفرعونية، الاسرة الكوشية في مصر، التراث الكوشي في سجلات البلاط الحبشي.

A preliminary approach to the problematic of Zarih the Kushite Dr.Khalid Mohamed Farah

Abstract:

This article seeks to propose an initial approach to a very mysterious ancient Sudanese (Kushite) character, the character of “Zareh the Kushite“, mentioned in the Book of Chronicles 2, in the Old Testament of the Bible. Through this article, the researcher tries to scrutinise the identity of Zareh the Kushite, and also tries to discuss the historicity of his existence, through a number of relevant available data and evidence, as well as trying to put this character in its appropriate historical context, through the events narrated in that book of the Old Testament of the Holy Bible related to this particular character, in addition to some circumstantial evidence provided by the records of the general secular history, related to the countries of Kush, Egypt, or the Kingdom of the Hebrews in the country of Kanaan, around the ninth century BC. The article departs from the researcher’s hypothesis or conviction that the books of the Bible should be adopted in earnest, as one of the sources of the ancient history of Sudan, as they have already included some quite unique and remarkable historical information related to the country of “Kush”, such as the reference in the book of Kings 2, for example, to “Tirhaqa the King of Kush”, who led an army with which he fought in defence of the Hebrews against the Assyrians, since he was a prince in the late eighth century BC, and his military activity continued there after he became king over the entire Nile Valley, until his forces were finally defeated by the Assyrians, and was therefore, forced to withdraw from Egypt itself, so as to retreat back to Napata his capital in Northern Sudan. This information is indeed confirmed and corroborated by the contemporary sources of the secular history of Assyria and Pharaonic Egypt, during the era of the twenty-fifth dynasty, known as the Kushite dynasty. Based on this, the article argues within the same context that, “Zareh the Kushite” might have been a former Kushite prince or probably a king, who might have appeared and conducted some military activities in the Levant, some two centuries before the advent of the adventure of king Taharqa in the same region. The article

follows the historical, inductive and analytical approach of the information and references available about Zareh the Kushite and his time, and also relies on the evidence of general indications, common sense and circumstantial evidence.

Keywords: Zareh the Kushite, the Old Testament, 2 Chronicles, Pharaoh Osorkon, the Libyan dynasties, the Kushite dynasty, the Abyssinian chronicles.

مقدمة:

ينبغي أن تكون أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس، من المصادر المعتمدة لتاريخ السودان القديم، أو ما تطلق عليه تلك الأسفار نفسها في نصوصها الأصلية باللغة العبرانية، اسم: « كوش »، وهو الاسم الذي ترجمه الإغريق لاحقاً بكلمة « إثيوبيا »، وتبناه الكتاب الكلاسيكيون في مؤلفاتهم للدلالة على البلاد الواقعة إلى الجنوب من مصر: أي كوش أو مروى أو بلاد النوبة أو السودان الحالي. وقد ثبتت صحة الإشارات إلى بعض الشخصيات والوقائع التاريخية المرتبطة بتاريخ السودان القديم، وخصوصاً في طوره المتعلق بقيام وسيادة مملكة (نبتة/ مروى 900 ق.م - 350 ميلادية تقريباً)، والتي ورثت بدورها مملكة « كرمة » السابقة لها (2500 - 1500 ق.م)، ثبتت صحتها بمضاهاة تلك الإشارات الكتابية التوراتية، مع ما قد كشفت عنه المصادر الخطية واللقى الأثرية العائدة إلى تلك الفترة، والتي عُثر عليها في كل من مصر وبلاد الشام والعراق وشمال السودان، وذلك بعد مضي عدة قرون من تاريخ تدوين تلك الإشارات في الكتاب المقدس.. فمن بين تلك الإشارات التي تتظاهر على صحة تاريخيتها مصادر كلا التاريخين الديني والوطني على حدٍ سواء، الإشارة التي وردت في سفر أخبار الملوك الثاني (17/4) للملك الكوشي « سوا » الذي يعتقد العلماء أنه هو نفسه الملك النبتي « شبكا » 716 - 701 ق.م الذي كان ملكاً على مصر وشمال السودان معاً ضمن سلسلة ملوك الأسرة الخامسة والعشرين التي عرفت بـ « الأسرة الكوشية » أو « الإثيوبية »، وإرساله لابن أخيه الملك الشهير فيما بعد « ترهاقا 690 - 664 ق.م » إلى فلسطين لمحاربة الآشوريين الغزاة في عهد الملك سرجون في حوالي سنة 713 ق.م، فضلاً عن إشارة سفر أخبار الملوك الثاني، الإصحاح التاسع عشر، وكذلك إشارة سفر أشعياء الإصحاح 37 الصريحتين لـ « ترهاقا ملك كوش »، وحملته العسكرية في فلسطين متضامناً مع ملوكها العبرانيين أيضاً، ضد الملك الآشوري « سنحاريب »، والتي أدت في نهاية الأمر إلى هزيمة ترهاقا، واضطراره إلى التقهقر و الجلاء عن مصر نفسها، والانسحاب إلى السودان، لكي يموت في عاصمته « نبتة »، ويدفن داخل هرمه بجبانة « نوري » الشهيرة بالقرب من جبل البركل بشمال السودان. وقد ذهب نفر من الباحثين المعاصرين في معرض تبريرهم لتلك الهزيمة، إلى حقيقة استخدام الآشوريين أسلحة مصنوعة من الحديد في تلك الحرب، في الوقت الذي لم يكن جنود ترهاقا يعرفون حينئذٍ سوى أسلحة البرونز الأضعف نسبياً. وقد ذاع تنويه الكتاب المقدس بذكر العاهل السوداني « ترهاقا » بصفة خاصة انتشاراً لا بأس به بين أوساط بعض المتعلمين والباحثين السودانيين، فضلاً عن بعض الكتاب والباحثين المنضوين

تحت تيارات القومية السوداء، والزنوجة، ، ومنظري حركة الجامعة الإفريقية، ، وطوائف من مثقفي الأمريكيين السود ومن إليهم ، بل صارت هذه الحقيقة إحدى ترينماتهم المفضلة التي يحرصون على تدوينها في غير قليل من الزهو والتباهي بنبل ذلك المحتد (السوداني/ الإفريقي/ الزنجي الخ) ، وعراقة حضوره في سياق أحداث العالم القديم وتاريخ حضارته ، وذلك في إطار ما يسمى بمنظور المركزية الأفريقية لقراءة تاريخ إفريقيا والشعوب السوداء عموماً ، في مقابل منظور المركزية الأوروبية.

أما شخصية “ زارح الكوشي “ أو “ الإثيوبي “ أو إن شئت “ السوداني “ ، فإنها كما نلاحظ لم تجد حظها من الاهتمام الذي هي قيمة به من قبل الكتاب والباحثين بصفة عامة ، وهي شخصية يكتنفها الكثير مما يغري بالتنقيب والبحث والتقصي باعتبار أنها شخصية غامضة ومثيرة للاهتمام لدرجة كبيرة. ولعل السبب في انصراف الباحثين بصفة عامة عن الخوض في سير كنه هذه الشخصية الغامضة ، هو عدم العثور- حتى الآن - داخل المصادر التاريخية الوضعية سواء النصية منها أو الأثرية على إشارة واضحة وصرحة تدل عليها وعلى وجودها التاريخي خارج سياق الكتاب المقدس ، بخلاف شخصيتي “ شبكا “ و “ ترهاقا “ اللتين ثبت وجودهما التاريخي في غير النصوص التوراتية ، فضلاً عن ورود اسم ترهاقا على الأقل في الكتاب المقدس كما أسلفنا. هذا ، ومن مثالب عصر التنوير في أوروبا الذي هو أبو الحداثة المعاصرة بامتياز- مع محاسنه الكثيرة وغير المنكورة بالطبع - أنه قد تمخض في تقديرنا عن حالة ذهنية اعتُبرت معها كافة المعارف والمعلومات الواردة في المصادر الدينية الكتابية ، أو الآداب الأسطورية (الميثولوجيا) ، ذات حجية تاريخية أو علمية واهية وضعيفة على أحسن تقدير ، أو باطلة ومن قبيل الخرافات قولاً واحداً ، عند الغلاة والمتطرفين. وما درى معظم هؤلاء على سبيل المثال أنه لو لا أن شامبليون قد عثر على اسم مدينة “ بي رعمسيس أو برعمسيس “ مدونا في “ سفر الخروج “ في معرض ذكر أسماء المدن التي أمر فرعون العبرانيين من قوم موسى عليه السلام ببنائها له سخره واستعبادا ، لما تسنى له مطلقاً فك شفرة اللغة المصرية القديمة في عام 1822 م ، معتمداً في ذلك على عبقرية ذكائه المتوقد رغم صغر سنه آنئذٍ ، إلى جانب معرفته الحسنة باللغات القبطية والعربية والإغريقية ، ولما تمكن بالتالي من تقديم خدمته الجليلة التي قدمها للعلم وللإنسانية قاطبة. ذلك بأن كتاب التوراة وحده ، هو الذي قد حافظ على اللفظ المصري القديم لاسم تلك المدينة ، والذي يتضمن أيضاً اسم أشهر فراعنة مصر على الإطلاق ألا وهو “ رمسيس الثاني “ الذي يعتقد على نطاق واسع أنه ربما كان “ فرعون موسى “ نفسه ، على اختلاف بن العلماء والمؤرخين في ذلك. (1) ولعل مما يمكن ذكره في هذا السياق أيضاً ، أن الاعتقاد الذي قد كان سائداً بين أوساط السواد الأعظم من أولئك المؤرخين والدارسين المتأثرين بالتيار (التنويري) ، هو أن أشعار هوميروس الواردة في ملحمة الإلياذة التي تشير إلى الملوك الآخيين وقصورهم في موكيني وغيرها ، وكذلك حروبهم في طروادة ، هي من الأساطير الخرافية التي لا يمكن تصديقها على أنها حقيقة واقعة. ولقد استمر هذا الاعتقاد سادراً في غروره الواهم حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عندما تمكن هاينريخ

شليمان من الكشف عن بقايا مدن طروادة وموكيني وتيرينث في جزر بحر إيجه ، وكان لهذه الاكتشافات دوي عظيم في شتى أرجاء العالم.(2) ورد اسم “ زارح الكوشي “ في سفر “ أخبار الأيام الثاني “ من كتاب العهد القديم ، حيث جاء في خبره أنه قاد جيشاً جراراً غزا به مملكة “ يهوذا “ في فلسطين في عهد “ آسا 912 – 871 ق.م “ ملك العبرانيين ، الذي هزم جيش زارح هزيمة منكرة في المعركة التي دارت بين جيشيهما في “ مريشة “ بأرض فلسطين. وقد جاء في الإصحاح الرابع عشر من سفر أخبار الملوك الثاني في هذا الشأن ما نصه:

“ فخرج إليهم زارح الكوشي بجيش ألف وممركبات ثلاث مائة وأتى إلى مريشة. وخرج آسا للقائه واصطفوا للقتال في واد صفاتة عند مريشة. ودعا آسا الرب إلهه وقال أيها الرب ليس فرقاً عندك أن تساعد الكثيرين ومن ليس لهم قوة. فساعدنا أيها الرب إلهنا لأننا عليك اتكلنا وباسمك قدمنا على هذا الجيش. أيها الرب انت إلهنا. لا يقو عليك إنسان. فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا فهرب الكوشيون. وطردهم آسا والشعب الذي معه إلى جرار وسقط من الكوشيين حتى لم يكن لهم حي، لأنهم انكسروا أمام الرب وامام جيشه الخ”. وقد جاء في دائرة معارف الكتاب المقدس The Bible Encyclopedia المنشورة على الشبكة العالمية للمعلومات ، أنه يعتقد أن يكون “ زارح “ هو نفسه الفرعون “ أوسوركون الثاني “ Osorkon II أحد فراعة الأسرة الثانية والعشرين الفرعونية الليبية الأصل كما هو شائع حول أصل هذه الأسرة عند العلماء والباحثين. أي أنه أحد أحفاد الفرعون “ شيشانق “ وخليفته على العرش ، والمعروف - بهذه المناسبة - هو أن الفرعون شيشانق هذا مذكور باسمه في التوراة التي أشارت أيضا إلى أنه كان معاصراً للنبي سليمان بن داؤود عليهما السلام. وزعم الكاتب الفرنسي ل. ج. مورييه L. J. Morié أن اللغوي والعالم الفرنسي الشهير شامبليون ، الذي ينسب إليه فك رموز الخط الهيروغليفي ، مما اتاح للبشرية معرفة مدلولات ألفاظ اللغة المصرية القديمة ، كان هو أول من افترض أن يكون “ زارح الكوشي “ هو أوسوركون الثاني ، وذلك استناداً إلى التشابه اللفظي بين الاسمين ، وتقارب التواريخ المقدرة لكليهما. (3) ومن الملاحظ أن هذا الافتراض الذي قال به شامبليون فيما يتعلق بهوية “ زارح الكوشي “ قد شاع بين سائر المؤرخين والباحثين اللاحقين ، على الرغم من وجود بعض الاضطراب الملاحظ حول تحديد عما إذا كان المعني هو أوسوركون الأول ، أم أوسوركون الثاني. فهاهو عالم الآثار السودانية الأمريكية تيموثي كيندال ، عن يلمح في مقال له بعنوان: “ ذكريات الجبل المقدس ، أي (جبل البركل) .. نباتا والأسرة الكوشية “ ، يلمح إلى احتمال أن “ زارح “ ، ربما كان ضابطاً أو مقاتلاً مرتزقاً في قوات أوسوركون الأول على حد زعمه ، وذلك دون إشارة صريحة منه للرواية التوراتية التي هي أصل خبر زارح في الأساس. وقد جاء نص البروفيسور كيندال كما يلي: “ الملك شيشانق الأول (حوالي 945 – 924 ق.م) وخليفته أوسوركون الأول (حوالي 945 – 924 ق. م) ضما أيضاً بعض المرتزقة والضباط إلى جيشيهما من أجل شن حملات عسكرية داخل مملكة يهوذا. “ أ.هـ. (4) وقد طُرح موضوع للنقاش في موقع جمعية الأدب والتراث التوراتي على الإنترنت ، خلال

شهر يوليو 2007م ، فحواه جدال علمي يَرَّجَحُ أن يكون زارح الكوشي هو الفرعون أوسوركون الأول. ومما جاء في هذا الموقع أن أوسوركون الأول هو ابن شيشانق الأول مؤسس الأسرة 22 الفرعونية ، وأنه - أي أوسوركون الأول - هو الملك الثاني في سلسلة ملوك تلك الأسرة ، وأنه قد حكم خلال الفترة من 922 - 887 ق. م. ويضيف الموقع أن هجوم زارح على مملكة يهوذا قد تم خلال العام الخامس عشر من حكم الملك العبراني " آسا " ، وهو ما حدد له بحوالي سنة 896 ق. م. غير أن من بين أكثر التصانيف المعاصرة إثارة للاهتمام ، و التي أفردت بشكل كامل لبحث " إشكال زارح الكوشي " ، مقال لعالم الآثار الروسي س. ي. بيرزينا ، منشور بمجلة "أركماني" الإلكترونية للآثار والأنثروبولوجيا السودانية لمؤسسها عالم الآثار السوداني الراحل بروفيسور أسامة عبد الرحمن النور ، جاء تحت عنوان: " حملة زارح الكوشي ". ولتمام الفائدة ، رأينا أن نقتبس فيما يلي نص ملخص باللغة العربية للمقال المذكور ، على الرغم من طوله النسبي ، وذلك نسبة لما اشتمل عليه المقال من إضاءات مهمة لإشكال زارح الكوشي من عدة زوايا:

" تشير معطيات آثارية جديدة ، وخاصة اللقى المكتشفة في العاصمة المروية نتيجة أعمال التنقيب المنتظمة التي أجريت قبل سنوات إلى أن مروى ظهرت إلى مسرح الأحداث في وقت مبكر أقدم من القرن الثامن قبل الميلاد. لهذا السبب يمكننا الرجوع إلى المصادر التي تتحدث عن تاريخ الشرق الأوسط وشمال شرق إفريقيا في وقت مبكر من الألفية الأولى السابقة للميلاد ، وخاصة إلى الإجراءات التي ظلت خارج مدى ملاحظة الدراسات المروية لتلك التواريخ عن حملة زارح الكوشي إلى مملكة يهوذا. عادة ما جذبت القصة الباحثين وعدَّ الغزو حقيقة تاريخية. تؤرخ الحملة بالعام 879 ق. م ، وقُيِّمت تقليدياً في محتوى التاريخ المصري. لفترة طويلة تمت مطابقة زارح بأساركون الأول ، لكنه يُطرح حالياً أن زارح كان قائداً من قواد أساركون.

التواريخ ، وهي تؤلف المصدر الموثوق الأساسي ، صُمِّنت في النسخة المعتمدة الموثوقة للكتاب المقدس بعد العديد من المراجعات والكثير من الحذف. لا يتضمن الكتاب المقدس معلومة عن وضع زارح. يعتمد التحليل على نسخ غير موثوقة من يهوذا ، ومصر ، والجزيرة العربية إلى جانب تلك التي احتفظ بها فيما يسمى بملاحظات لوسيان في السيتواجينت ، أي التاريخ اليهودي الذي وضعه يوسف فلافيوس ، وفي أعمال المؤرخين القروسطيين: أوتيوخوس والطبري. ادعى أولئك المؤلفون أن زارح (زارح - زاراي) كان ملكاً لكوش. تتحدث رواياتهم عن ظروف الحملة ونتائجها ، تتوافق معطياتهم كلياً مع التواريخ. إضافة يقولون بأنَّ السبب الدافع للحملة هو الاستغاثة التي تقدم بها نبلاء يهوذا إلى زارح ، لضيقهم من إصلاحات آسا. الطريق الذي سلطته الحملة موضح بما في ذلك الأسماء الدقيقة للأماكن ، وقد وجد واحد منها في النص القانوني. لا تتناقض الرواية في الكتاب المقدس مع المصادر الأخرى ، وتشير إلى أن زارح سار عبر مناطق معادية حتى وصل إلى جرار. وجد زارح دعماً من السكان الحضري والقبائل البدوية في جنوب دولة يهوذا. يبدو أن زارح وجد حلفاء في تلك الأراضي ضد آسا الذي أخافهم بنفوذه المتزايد وسياسته الخارجية العدوانية. فكرة الحملة في اعتقادي ، حفزها غزو الكوشيين الناجح لدولتي يهوذا وإسرائيل ،

والذي كان قد قاده شيشانق الأول في العام 925 ق. م. يجب النظر إلى حملة زارح في إطار التوسع الكوشي في القرن التاسع ق. م عندما تقدم الكوشيون إلى حدود الأراضي العربية (التواريخ 2 ، 21 ، 16) ، واحتمالاً ثبتوا سيطرتهم عليها “ انتهى الاقتباس من موقع من الواضح أنه رغم بعض الهنات الملاحظة على الترجمة ، والتي لم تؤثر على المعنى العام لنص المقال المختصر ، مثل ترجمة Chronicles ب “ التواريخ “ ، وإنما الصحيح هو ترجمتها ب “ سفر أخبار الأيام “ ، إذ أن هذه هي الترجمة العربية الشائعة والمعتمدة لاسم هذا السفر من الكتاب المقدس ، فضلا عن اتسام النص بشيء من عدم الترابط في الصياغة ، إلا أنه يبدو أن كاتب هذا المقال يميل إلى ترجيح فرضية أن يكون “ زارح “ إما هو “ أوساركون الأول “ نفسه ، أو أنه قائد من قواد جيشه ، على الفرضية التي نسبها إلى بعض المصادر الأخرى التي تشير إلى أن “ زراح “ كان ملكاً لكوش. أما إشارته للطبري بوصفه أحد المؤلفين الذين عرضوا لمسألة زارح الكوشي هذه ، فلا ندرى من أين مصدر استقائها من مؤلفات الإمام الطبري ؟. على أننا وقفنا في النسخة التي رجعنا إليها من كتاب الطبري الكبير في التاريخ: “ تاريخ الرسل والملوك “ على ما دعاه الإمام محمد بن جرير ب “ ذكر خبر آسا بن أبيا وزرج الهندي “ بالجيم المنقوطة عوضاً عن الحاء. وما من شك في أن زرج “ الهندي “ المذكور في تلك النسخة من كتاب الطبري ، هو نفسه زارح الكوشي المذكور في التوراة ، والله أعلم كيف صار “ هندياً “ ههنا وليس كوشياً كما هو مثبت في التوراة ؟. ومضمون عرض الطبري لخبر زرج المذكور ، هو أن أبيا والد آسا المذكور كان مخالفاً لشرعية بني إسرائيل ، بل كان عابد أصنام ، فلما مات خلفه ابنه “ آسا “ الذي كان رجلاً صالحاً ، فأراد حمل رعيته على التقى والتمسك بعقيدة التوحيد ، فكرهوا ذلك منه ، فاستنجدوا “ بزرج الهندي “ لكي يخلصهم منه. (5) وهكذا بدأت فرضية أن يكون زارح الكوشي هو الفرعون “ أوساركون الأول “ ثاني ملوك الأسرة الثانية والعشرين المصرية ، أو أن يكون أحد قادة جيشه ، بدأت تلقى قبولا متزايداً في الأوساط العلمية واللاهوتية على حد سواء ، على الرغم من بعض المآخذ الواضحة على منطقتها وصدقيتها. ولعل أول هذه المآخذ يتعلق بأصل ملوك الأسرة الثانية والعشرين المصرية نفسها، التي يتأرجح الرأي فيه بين العلماء ما بين نسبتهم إلى ليبيا والواحات المصرية الغربية ، وبين الأصل السامي المشرقي ، وذلك نسبة لورود بعض الأسماء التي تدل دلالة خاصة وحصرية على الأصل السامي بين أفرادها مثل اسم: “ نمرود “ ، في الوقت الذي لم يشأ فيه أي عالم أن يشير إلى احتمال أن تكون هذه الأسرة من أصل كوشي ، وهو الأمر الذي كان قميناً - في حالة ثبوته - أن يحل إشكال زارح الكوشي من أول وهله. على أن عالم الآثار الأمريكي “ رايزنر “ كان قد طرح فرضية ثبت بطلانها فيما بعد، مفادها أن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين “ الكوشية أو الإثيوبية “ هم من أصل ليبي يعود إلى فراغنة الأسرة الثانية والعشرين. والرأي الراجح في اعتقادنا أن هذه الأسرة الثانية والعشرين - كائناً ما كان أصلها - إما أن تكون قد اختلطت وأصهرت إلى أسرة ملكية أو بيت مُلك في بلاد كوش، نرجح أن يكون قد ظهر خلال بضعة من القرون سبقت بروز المملكة النبتية/ المروية المعروفة التي يؤرخ لها العلماء بقدر كبير من اليقين ابتداءً من أول ملوكها “ كاشتا 806 - 751 ق. م “ ،

حيث أنّ من الأدلة على ذلك التداخل بين الأسرة 22 و المملكة الكوشية المفترضة التي تضم أسلاف كاشتا وبعانخي فيما نرجح ، هو وجود كاهنة عظمى للإله أمون بطيبة تسمى “ شبتنوبيت الثانية “ منسوبة للأسرة الخامسة والعشرين الكوشية ، بينما كانت هنالك “ شبيتنوبيت أولى “ منسوبة لفرعنة الأسرة 22 ، هذا بالإضافة إلى وقوع حملة زارح الكوشي في نفس فترة حكم هذه الأسرة ، مما يرجح إمكانية التواطؤ والتنسيق بين ملك مصر وملك كوش بالنسبة للرواية الأخرى التي تقول إن زراح كان ملكا لكوش. وهذا الافتراض يقتضي بالطبع أن يكون ملك مصر قد سمح لحليفه زارح الكوشي بعبور بلاده في طريقه إلى يهوذا. وإما أن يكون قد نشأ نوع من الحلف والتعاون بين ملوك كوش بمن فيهم زارح المذكور ، وملوك الأسرة الثانية والعشرين التي لا تنتمي لسلالة الفرعنة الأقدمين كما هو ثابت عند العلماء. هذا ، ولا ينبغي أن يكون قيام تضامن وتحالف بين سلطة مركزية مستقلة في كوش مع أسرة ملكية مغتصبة للعرش في مصر أمراً مستغرباً ، ذلك بأن المصادر التاريخية تخبرنا أن حلفاً مثل ذلك كان قد وقع بالفعل منذ أيام الدولة الوسطى بين حكام كوش في طور دولة “ كرمة “ ، وبين أسرة الملوك الرعاة أو “ الهكسوس “. ويعرف الدارسون والباحثون المختصون خبر الرسالة التي ضبطها بعض أمراء الصعيد ، والتي كانت موجهة إلى ملك كوش من أحد الملوك الهكسوس يطلب منه فيها التحالف معه ضد سلالة الفرعنة المصريين بالوجه القبلي ، الذين كانوا يتأهبون لاستعادة سيادتهم على بلادهم ، وهو الأمر الذي تم لهم على يدي “ أحمس “ الذي دحر الهكسوس وأجلاهم عن مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد ، ثم اجتاحوا شمال السودان (مملكة كرمة) نفسه بعد ذلك مباشرة ، وفرضوا سيطرتهم عليه لبضعة قرون. والمأخذ الآخر على فرضية (زارح = أوساركون)، إذا ما اعتبرنا رواية التوراة أصلاً للخبر-وهي بالفعل كذلك ، هي أن رواية التوراة صريحة في أن الجيش الذي هاجم مملكة يهوذا على عهد آسا كان جيشاً كوشياً وليس مصرياً. على أنّ هنالك فرضية مثيرة للاهتمام للغاية ، فضلاً عن أنها جديرة بالتأمل والوقوف عندها ملياً ، وهي تتعلق بمحاولة التعرف على هوية “ زارح الكوشي “ ، وقد قال بها المؤلف الفرنسي ج. ل. مورييه منذ مطلع القرن العشرين ، غير أننا لم نجد لها صدى في أي مؤلف معاصر آخر. يقول مورييه في كتابه: “ تاريخ إثيوبيا “ الصادر في باريس في عام 1904 إن فرضيته تقوم استناداً على محاولة قام بها العالم برقش ، برهن من خلالها على وجود ملك كوشي يسمى “ أتزيك - أمن “ غير أن تاريخ هذا الملك المكتشف متأخر عن التاريخ المعتمد لخبر زارح الكوشي ، أي القرن العاشر قبل الميلاد. وعلى هذا الأساس فقد قال مورييه انه يتبنى فرضية وجود “ أتزيك أمن “ سابق لهذا ، بمعنى “ أتزيك - أمن (الأول) “. فكأن مورييه قد لاحظ أيضاً التشابه اللفظي بين “ أتزيك - أمن - زارك - زارح “. ومن الملاحظ أن صوت الكاف الوارد في آخر المقطع الأول من الاسم الذي اقترحه مورييه مطابقة “ زارح “ بحسب رأيه ، ألا وهو “ أتزيك “ ، لا يبعد كثيراً عن صوت الجيم في اسم “ زرج “ الذي أثبتته الطبري نقلاً عن سلسلة من الأخباريين السابقين له ، جاء على رأسها وهب بن منبه. وهكذا يضع مورييه بكل ثقة في كتابه المذكور قائمة ملوك كوشيين يرجع بها إلى القرن الحادي

عشر قبل الميلاد ، جاعلاً مؤسسها هو “ حريحور “ كاهن أمون الأكبر بمدينة “ طيبة “ بمصر ، مروراً بجملة من الملوك من بينهم ملك يدعى “ رو- كي - أمن “ Ro - Ke - Amen قَدَّر تاريخ حكمه ما بين 983 - 958 ق. م ، وزعم أنه هونفسه “ لقمان الحكيم “ المذكور في القرآن الكريم ، والذي يذكر المفسرون بصورة مدهشة أنه كان معاصراً لداؤود عليه السلام ، أي في القرن العاشر قبل الميلاد نفسه. ثم إنه جعل من ضمن قائمته من أسماها ب “ أتزرك أمن الأول “ 958 - 943 ق. م ، زاعماً أنه ابن لقمان الحكيم وخليفته على حكم إثيوبيا “ كوش “ ومؤكداً أنه هو نفسه “ زارح الكوشي”⁽⁷⁾ ولكي نتعرف على السياق التاريخي الذي وقعت في إطاره الملابس التي اكتنفت خبر زارح الكوشي أياً كانت هويته ووضعها ، فلنقرأ معاً الفقرة التالية المقتبسة من كتاب: “ مملكة مروى التاريخ والحضارة “ لمؤلفه البروفيسور عمر حاج الزاكي ، أستاذ تاريخ السودان القديم بالجامعات السودانية:

“ خضع السودان الشمالي لحكم فراعنة الإمبراطورية المصرية لخمسة قرون متصلة (1580 - 1080 ق. م) ... وحينما أصاب الوهن الإمبراطورية المصرية ، وورث النفوذ السياسي فيها كهنة أمون ثم الجنود المرتزقة الليبيون ، تُرك السودان الشمالي لأهله ، ومر قرنان من الزمان لا نعرف فيهما الكثير عما كان يجري فيه. ولكن آثار مقبرة الكرو الملكية التي دفن فيها بعانخي بعد ستة من أسلافه العظام ، تبين بأن سلطة محلة منظمة ورثت النفوذ المصري في السودان وظلت تنمو بعيداً عن أعين العالم الخارجي .. “⁽⁸⁾

ثم إننا نظرنا ملياً في سلسلة نسب ما يسمى ب “ الأسرة السليمانية “ ، التي كان يدعى الانتماء إليها أباطرة الحبشة ابتداء من منليك الأول وانتهاء بهيلاسلاسي الأول الذي انتهى حكمه في عام 1974 ، فوجدنا أنهم كانوا يعتقدون أن لهم جدا اسمه “ زيرا Zera “ ، هو الجد الثالث نزولا بعد منليك ، وهم يعتقدون أيضاً أنه هو نفسه “ زارح “ المذكور في التوراة. ثم إننا قد اكتشفنا العجب العجاب في شجرة النسب السليمانية تلك. إذ أن أسماء جميع ملوك مملكتي نبتة / مروى تقريباً ، مذكورة في ذلك النسب: (كاشتا وبعانخي وشباكا وشبتاكا وتونتاماني الخ) ، وأعجب من ذلك كله أننا وجدنا اسم “ أتزرك أمن “ مكرراً ، ومرتباً بالأرقام ، من أتزرك أمن الأول ، وحتى السادس ، بوصفها أسماء أسلاف سابقين لتلك الأسرة الحبشية الأكسومية. وقد قرر عندنا من خلال هذه البيئة الظرفية ، أن زارح الكوشي ينبغي التماسه على الأرجح في اسم “ أتزرك أمن “ هذا ، وليس في اسم “ أوسوركون “ الليبي/ السامي. وعليه ، عسى أن تكون فرضية المسيو مورييه القائلة بان زارح قد كان ملكاً على كوش ، فرضية راجحة. وختاماً ، فإننا نعتقد أن جل التركة الثقافية والتاريخية ، والإرث السلطوي للمملكة الكوشية / المروية ، بالعديد من رموزه وشاراته ووقائعه ، قد انتقل إلى بلاد الحبشة/ أكسوم من بلاد السودان وادي النيل ، التي يبدو أنها قد زهدت فيه إثر تحولها بالكلية إلى الإسلام كما نرجح ، في الوقت الذي بقيت فيه السلطة الحاكمة في الحبشة والنواة الصلبة للمجتمع في تلك البلاد على المسيحية ، فأثرت أن تراث سائر تراث السودان الكتابي والتوحيدي السابق للإسلام كله إن أمكن ذلك ، وكأنَّ لسان حال السودانيين المعاصرين يقول لها: “

مبروك عليك". ولكن هذا لا يغير في الحقائق شيئاً. فهذا التراث تراث سوداني أصيل، نشأ في هذه البلاد، ومنها انطلق إشعاعه الباهر نحو مناطق أخرى من العالم، فينبغي علي الباحثين والعلماء السودانيون أن يهتموا به، وأن يسهموا في الجهود الرامية إلى كشف غوامضه، باعتبار أنه يمثل تراثاً إنسانياً جامعاً، كان لأسلافهم الأماجد شرف صنعه ووضعه في سجل التاريخ الإنساني والحضارة البشرية. هذا، وما يزال الباب مفتوحاً للبحث والنقاش في مسألة زارح الكوشي بن لقمان الحكيم عليه السلام !!

إحالات مرجعية:

- .Bucaille, Maurice, Moise et Pharaon, Segher, Paris, 1995, pp.75 – 76
- بدوي، فتحي عفيفي، علم الآثار، الجزء الأول: في مفهومه ومهامه ومراحل تطوره التاريخية، الطبعة الأولى، مطبعة حسان، القاهرة، 1984 م.
- Morie', L. J. Histoire de L'Ethiopie (Nubie et Abyssinie), Paris. Augustin Chal-lamel, 1904, p 308
- Kendall, Timothy, Les Souvenirs de la montagne sacré', Napata et la Dynastie des Koushites, in Soudan: Royaumes sur le Nil, Institut du Monde Arabe, Flammarion, Paris, 1997, p. 162
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 2005 م، الصفحتان 175 و176.
- Morie', L. J., Histoire de L'Ethiopie, op.cit, p. 309
- .Morie', L. J., Histoire de L'Ethiopie, op.cie, p.308
- حاج الزاكي، عمر، مملكة مروى التاريخ والحضارة، سلسلة إصدارات وحدة تنفيذ السدود، إصدار رقم (7)، الخرطوم، 2006 م، الصفحتان 34 و35.